

رواية

سمراء

فاطمة بومدين

إسم الكاتب: فاطمة بومدين.

آدم مرام للنشر والتوزيع ، 2019

إسم الكتاب: سمراء.

ISBN : 978-9931-785-12-5

مصمم الغلاف: يونس قدار.

الإيداع القانوني: فبراير، 2020

الإخراج الفني: يونس قدار.

جميع الحقوق محفوظة لدار:

آدم مرام للنشر والتوزيع والترجمة

وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية، أو

بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن خطي من الناشر

أو الكاتب يعرض فاعله للمسائلة القانونية.

رقم الهاتف: +213696921161

العنوان: مركز التجارة والأعمال - المحمدية - الطابق الرابع - مكتب رقم 1163.

البريد الإلكتروني: ademedition2020@gmail.com



إهداء

إلى: عائلتي الصغيرة

ذلك الطريق الذي مررنا به في فصل الخريف،
اتخذته الزهور موطنًا لها الآن.

هذا العمل عبارة عن " ثنائية بلا عنوان "

الجزء الأول "إلياء"

الجزء الثاني "سمراء"

أمتلك وجهًا واحدًا ويأخذ مني ثلاث دقائق في غسله كلَّ

صباح، كان الله يعون أصحاب الوجوه الكثيرة .

- آل باتشينو

في صباح من صباحات شهر فيفري، بينما
 كان ذلك القرص الذهبي يشع في السماء الزرقاء
 الصافية يصحبه هواء الشمال وهو يُصفر. جلست
 سمراء الجميلة على مقعدها الفخم وكأنها غارقة بداخله،
 تُدندنُ مع الموسيقى التي بالكاد كانت تسمعها. وشعرها
 الأجدع يغطي عيناها الشهابوتان الكبيرتان اللتان
 تفيضان اشتعالا وإتقادا كأنهما نار، ووحده من يفهم
 لغة العيون يستطيع أن يميز أنهما سحابتان ستمطران الآن
 بحيث يبرز من تحتها وجنتان خاسفتان يتوسطهما
 أنف صغير وجميل، تحته مباشرة شفاه وردية رقيقة
 من الأعلى بينما هي مملوءة مكتنزة من الأسفل. وما
 يلفت الانتباه أكثر هو ذلك الشحوب الذي يكسوها
 من رأسها حتى أحمصِ قدميها وهو شحوبٌ أشبه

بشحوب الجثث، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على
الشقاء والحزن الذي يولده العذاب الأبدي.

كانت سمراء متدثرة بوشاح أحمر جعل لونها
الخطي يبدو جميلا وجذابا جدا، كما أنه أظفى عليها
شيئا من السكينة والهدوء رغم الهياج الذي تترغ فيه،
ويخفي حقيقة جوهرها الذي يشتعل مرة وينطفئ مرة
أخرى، ثم تنفجر شفتاها المحمومتان وتتحركان دون
إرادة منها وكأنهما تنطقان أحرفا أزلية فبدت للحظة ما
وكانها تغرق في مقعدها أكثر. وأبرقت عيناها ثم
أمطرتا ولم يطل هطول تلك القطرات المشحونة حتى
اقتحم صوت والدها ذلك الصمت والسكون الذي
تكورت بداخله. فبدرت منها حركة وقوف سريعة،
واتجهت حافية القدمين إلى غرفة العزيز الذي يودع
الحياة في هذه الأيام.

فَتَحَّتْ بابَ الغرفةِ بيديها الرخوتانِ وعيناها
متجمدتانِ من الهولِ وما إن فعلتِ حتى قصدتِ
السريرَ ثم جلستِ بجانبِ رجلِ بدي وجهه مدبوغا
تحت الشمسِ، يابس القسماتِ قصير القامةٍ مدكوكاً.
صلب اليدينِ بأَسِّ النظراتِ. خداه خاسفتانِ وعيناه
واسعتانِ نظرتهما شديدة الثباتِ إذا رأيتهما يتمعن
وخبرة أدركت أنه رجل سقيمٌ. من خلال ذلك اللون
الشاحب الذي صبغ جسمه كاملاً والغشاء الأصفر
الذي يخفي جمال عينيه الزرقاوتين .

كان جاك رجل ذو ثروة كبيرة وقد ذاع صيتهُ
في باريس وفرنسا ككل، فبالإضافة إلى أنه بيطري
مشهور، هو أيضاً مزارع شهم وقوي، يملك أراضي
خصبة واسعة كان يأجرها للفلاحين، لكن لا أحد

يعلم أن السبب الرئيسي لثرائه الفاحش هو تجارته بالمخدرات.

- الأب "جاك" : سمراء.

- سمراء : نعم يا أبي أنا.

- لا تركبني بمفردي هنا.

- لن أفعل، لن أفعل!... لن أفعل ذلك أبدا!

ثم قصدت الجهة الأخرى من السرير وتكورت بجانبه تحت اللُّحَافِ. وبدأت تحكي له عن آلامها وعذاباتها وحياتها الزوجية الفاشلة التي لم يكن يخفى عليه شيء منها، فمذ أن سقط فراشا لم تعد لإبنته قيمة عند ذلك الزوج الذي إختاره هو لها.

- استأنف القول : أنا آسف، آسف يا حبيبي.

- فتمتت : كلا، لا تقل ذلك يا أبي. كان ذلك

صنيعا جميلا منك و دون إرادة منها جلست تشهق على

صدره، ودموعها الصاخبة تنهمر دون انقطاع
واستمرت كذلك حتى الصباح...!

عندما استفاقت سمراء كان الضوء قويا
والزجاج ملطخا بطبقات ثقيلة من الجليد . بحيث
يظهر من خلاله لون الشفق الأحمر وكأنه يحترق قبلت
وجه والدها، ثم إتجهت نحو غرفتها غيرت ثيابها بسرعة
ونزلت من أجل تحضير فطور شهي يغذي جسمها
وجسم والدها الهزيل . وبينما هي كذلك جاء جبريل .
وعلى ذكر اسمه يجب أن نذكر للقارئ أن هذا
الرجل كان يعمل محاسبا عند جاك قبل أن يتوسط له
هذا الأخير ويجعل منه مديرا مصرفيا، ثم زوجا لابنته
الوحيدة سمراء . وجبريل هذا رجل ذكي وطماعٌ
وسيء الطبع، يتصف بكل الصفات السيئة التي يمكن
أن تخطر على البال، رغم أن مظهره الخارجي لا يوحي

وضع جبريل يده على ذقنها وضغط بشدة ثم
قال: لسانك الصغير صار طويلا يجوز فيه القص يا
حلوة.

-قالت : سنرى من سيقص لسان الآخر أولا.
وتحركت بغضب وبما أنه لم يُفَلت ذقنها بصقت على
وجهه هي الأخرى، ولم يكن بيده شيء آخر ليفعله
سوى أنه مدَّ يده إلى جيبه وأستَلَّ منه منديلا من
الساتان الأحمر مسح به ذلك الوجه المقزز . ثم أطلق
الريح لساقيه عائدا من حيث أتى. أغلقت الباب في
سرور واتجهت نحو غرفة والدها وهي تحمل الفطور.
جلس كلاهما ينظران إلى بعض هو بنظرات الحب
والفرح وهي بنظرات كلها حسرة.

تناولا القهوة وخبز التوست في هدوء. وبعد الإنتهاء
مباشرة طلب منها والدها أن تضع كل شيء على

فاطمة بومدين

سمراء

جانِب وتُحَضِر له صندوقا صغيرا من أحد الأدرّاج.
ونفذت الأمر كما جرت العادة.

- قال جاك : هل عرفتِ هذا الصندوق.

- قالت : لا، لا.

- ركزي.

- قالت : لا ! أبدا لا أعرفه.

- إنه الصندوق الذي كنت أحكي لك عنه دائما،
صندوق...

- ولم ينهي كلماته حتى تدخلت قائلة في تعجب : آآاه
صندوق الأميرة الصغيرة!؟

- نعم هو كذلك.

- يا إلهي كم هو جميل... كنت أظن أنه مجرد قصة.

- أوليس وجودنا وألّنا، وموتنا وحتى حياتنا قصة
ياعزيزتي.

-أجابته قائلة : بلا إنها كذلك....و تنهدت في غَمٍّ.
إنها قصة طويلة جدا...!

-ثم قالت : إذن ماذا يوجد داخل هذا الصندوق.

-الأب : ستفاجئين بما هو موجود في داخله، لكن لم
يُحِنِ الوقت لذلك بعد.

- لماذا يا أبي؟ لماذا تفعل ذلك بي؟ أنت تعلم أنني غير
صبورة في مثل هذه الأمور.

-هل هي عقوبة؟ قُلْ هل هي كذلك...؟ وبدأت
تُدغِغُ جسمه العليل وهو يتحرك ويتقلب في بطيء.
لِتَتَوَقَّفَ بعد برهةٍ

-وتقول: هل هو شيء يخص طفولتي؟ بادرها هو
الآخر بنظرة عميقة وحزينة وهو يشدُّ على شفتيه
بأسنانه، ودون كلمات هزَّ رأسه في بطيءٍ ونجلى .

- ثم تمرُّ الأيام بسرعة... ولم تلحق ساقاي أو يديّ أن
تتكفلا بأي شيء ...

- جاك : حبيبتي إجلسي أريد أن أخبرك بشيء مهم .
- فتجلس سمراء بجانبه في صمت. كانت تعتقد أنه
سيتحدث معها في أمور عادية كما جرت العادة... فلم
تعطه إهتماما.

- جاك يتحدث حاملا في يده صورة امرأة : أليست
جميلة يا عزيزتي؟

- سمراء : بلا جميلة جدا... هل أعرفها؟
- إنها سنينة... أمك .

- وما إن سمعت سمراء ذلك حتى إربدَّ وجهها
وانقبضت أساريرها .

- أرى أنك لست بخير ! هل نكل الحديث؟

- لا شيء... لا شيء البته! لا شيء إطلاقاً. يمكنك أن
تكمل .

- سأخبرك كل شيء عن أمك، وأتمنى أن تفهمي
موقفي يا عزيزتي. وإن لم تستطعي فحاولي مساعدتي على
الأقل . هممت مدهوشة...

-هم!

- قبل سنوات مضت كنت أحب أمك جداً والآن
أيضاً... ولا يمكن لأحد على وجه هذه الأرض أن
يلومني في ذلك. لقد كانت رائعة... نعم رائعة في كل
شيء، في حوارها، في ثقافتها في رزانتها،
صبرها، خوفها وقوتها وحتى في براءتها... لكني
ظلمتها... ظلمتها كثيراً في نهاية المطاف بعد أن كنت
قد وعدتها بأن أجعلها أسعد إنسانة في الوجود -
أتعلمين .

-أول مرة رأيت فيها أمك... كانت جميلة جداً،
وتألم بشدة هاهاها رأيتها في مزرعة
الأحصنة. كانت على وشك أن تضع مولودها الأول .

-سمراء فاغرة الفم : هل كانت أمي متزوجة من قبل؟
لماذا لم تخبرني بذلك قط؟

- لا تستعجلي الأمر دعيني أتحدث إلى النهاية فبالكاد
أستطيع النطق،...

-وفري علي الجهد أرجوك واكتفي بالإصغاء، لا
أريد الموت قبل أن أشرح لك كل شيء .
- حسنا واصل أنا أسمع .

- كما قلت لك كانت تضع مولودها الأول الذي كان
نتيجة علاقة غير شرعية ...

- يا إلهي ما هذا...؟

-جاك ينظر إليها شزراً .

-حسنا يا أبي...لن أكرر الغلط .

-سنيئة هذه أكثر إنسانة تعيسة الحظ في هذا الوجود،
لوترين كم أن روحها نقية جداً وصافية، ولا أعرف
كيف يعاقب الربُّ الناس البريئين...لكني أوؤمن أنه
مجرد إمتحان، إمتحان صعب جدا لكي تحصل على
السعادة في نهاية المطاف .

في بادئ الأمر تعرّضت للإغتصاب من صاحب
مزرعة مجاورة كانت تعمل نكادمة لديهم...هذا دون
أن أذكر سبب قدومها لفرنسا أصلاً... بعد الإغتصاب
صار هذا الرجل ميشال يعترض طريقها في كل
صباح ومساء بل وفي كل ثانية وأخرى، محاولا
إقناعها أن تعطيه فرصة للتحدث مع أمه بالأمر واعداً
إيّاها بالزواج وتصحيح الخطأ... وأمك لأنها خافت
وافقت على ذلك بعد عناءٍ طويل، ثم استسلمت لطلبه

في نهاية الأمر لكن ميشال إستغلها أكثر من ذلك وانتهى بها الأمر مطرودة من المزرعة وهي حامل...أخفاها صديق لي كان يعمل معها في المزرعة، وأنا من أشرفت على توليدها ذلك اليوم. هذا بإختصار .

-سمراء :وَأينَ الطفلَ اليوم! هل مات هو الآخر كما ماتت أمي .

-يُردُ جاكُ محمقُ العينين مدمرَ النفس نجلا...تكاد الأرضُ تبتلعه .. لم تمت الطفلة .
-إذن كانت فتاة ! كم هذا جميل .

-قال: نعم فتاة جميلة ورقيقة جدا .. لا يمكن للناظر أن يرفع عينيه عنها أبداً .-وبحلقَ فيها بعمقٍ - .
-سمراء : أكلتُ لقد تشوقت .

-قال: وأمك لم تمت أيضاً، لقد كذبتُ في هذا أيضا .

-ماذا؟ هل تمزح معي الآن؟!

-ردّ عليها بايًّا: نعم أنا تسببت في تعاستها وهجرتها، لكن لا أعلم إنّ كانت حية الآن أو ميتة... فأخر رسالة وصلتني منها كانت منذ حوالي أربعة عشرة سنة تقريباً. نعم أربعة عشرة سنة أو أقل .

-لماذا فعلت ذلك إشرح لي أكثر... لا أكاد أصدق يا أبي...! هل تستنفذ صبري أم ماذا؟

-لا أفعل يا عزيزتي، لا أفعل... فقط لا تتسرعي في الحكم علي، ولا تُعجلي موتي بغضبك أرجوك خذي الصندوق به كل شيء... كل شيء أنا فقط شرحت لك بإختصار، وهذا الصندوق يحمل ماشرح لك أكثر. أخذته بلهفة وتوجهت نحو أريكتها وبدأت تقرأ الرسائل الواحدة تلو الأخرى... عرفت كل شيء وفهمت كل شيء أيضاً. كانت عالقة في دوامة وبعد

إنتهائها من هذا الشيء، ذهبت تجري إلى غرفة والدها
تسأله .

-لماذا أنا معك رغم أنني لست إبنتك الحقيقية .

-قال: لتعرفي يا حبيبتى أنني فعلت كل شيء واستعملت
جُلّ الوسائل والطرق لآخذك من أمك وأحطمها مع
زوجها أيضا. رغم أنني في داخلي كنت أعرف أنها
تستحق أفضل مني... وهو كان ذلك الأفضل .

-أما والدك الحقيقي فهو خنزير بري لا يجوز أن تبغثي
عنه أو تذكره على لسانك الحلو أبداً، لأنه الوحيد
الذي دمرّ حياة أمك... حسنا لن أقول أنه الوحيد
الذي فعل ذلك فأنا أيضا ساهمت في ذلك لكنه
البادئ بالأمر .

_سمراء: سأجعلكم تدفعون الثمن تأكد من ذلك
يارجل! وخرجت مسرعة خارج الغرفة ،بل وخارج
البيت كله سافقة الباب وراءها....

إتجهت نحو حديقة اللوكسمبورغ وجلست
هناك اليوم بطوله ولنكن صريحين بعض الشيء رغم
أن سمراء لم تعرف أمها... هي تعرفها لكن معرفة
ضئيلة جدا، إلا أن سنة الحياة جعلت بينهما
عوامل كثيرة مشتركة وتواجدها في هذا المكان
بالذات لا يعتبر محض صدفة بل هو أحد تلك
العوامل.

جلست الفتاة تبكي بشدة على الحياة التي
تعيشها وعلى المصير الذي كُتب لها أن تتخبط فيه، ثم
استجمعت قوتها بعد ذلك بسرعة وقصدت البيت
الذي خرجت منه مرة أخرى، وهاهي ذي الآن

فاطمة بومدين

سمراء

تمشي بخطواتها السابلة في ممر البيت العريض. بعد أن
صعدت الدرجات المؤلمة الكثيرة العدد، دون أن
تدخل إلى غرفة والدها وندمت على ذلك فيما بعد...
لأن ذلك الأب قد رحل... نعم رحل إلى
الأبد.

" الكلابُ لا تُعَضُّ أبداً . وحُدُهُمُ

الرجالُ يفعلونُ "

- مارلين مونر

بعد مرور ثلاثة أشهر

جبريل.

بينما كانت سمراء لا تزال تَلَطِّم وجهها
وتَحْمِشُهُ وقلبا ينزف وعيناها تتحسر، والندم يقتلها في
كل ثانية. ظهر جبريل في حي الشانزليزيه بمظهره
الصَّارِم وجسده الضخم الطويل يَتَّأيلُ كأنه يمشي على
النوابضِ مُرْتدياً بدلةً رَمَادِيَّةَ اللَّوْنِ وربطة عنق سوداء
مرقطة تليق بمقامه كمصرفي لكنها جعلته يبدو مكَتَنزاً
بعض الشيء. كما أنَّ حاجباه الكثيفان على غرار
العادة وأنفه المَعْقُوف وشعره الملتسِق على رأسه بِمَادَّة
تلميع جعلاه يبدو كجُثَّةٍ اِنْتَشَلَتْ من الماء لتوها. اتجه
جبريل إلى قصر أبراهام وفتح الباب ودخل بصِفته

مالك نصف القصر. وقف أمام سمراء ونظر إليها نظرة
تحدٍ واحتقار، ثم قال: رحل العجوز وترك آثاره .
-سمراء: أغلقِ فمك أرجوك... قبل أن أغلقه لك
بأسلوبي.

-فلتفعلي إن استطعتي.

-هي: تَنُفُو... بِأَسِقَةٍ عَلَى وَجْهِهِ.
-سأتجاوزُ لك هذا الفعل لأنني فرِحُ بحصولي على
نصف ثرواتِ ذلك العجوز ويضحك بصخبٍ
ويواصلُ -قائلاً: سَنَتَقَاسِمُ كلَّ شَيْءٍ يَاسَمْرَائِي،
سَنَتَقَاسِمُ.

-سأجعلك تدفع الثمن... تذكر هذا فقط... اللعب هو
الشيء الوحيد الذي سنتقاسمه. ثم رحلت.

بعد أسبوعين من وقوع الحوادث السابق ذكرها
إتصلت سمراء بجحامي مشهور كان صديقاً للعائلة، غير

أن هذا الأخير كان مريضاً مما جعله يقترح عليها محامياً
آخر كان قد أشرف عليه هو بنفسه منذ سنوات، بل
رَتَّبَ لهما موعداً أيضاً خلال مساء نفسِ اليوم.

خرجت سمراء من البيت متجهة نحو أحد
المقاهي المتواجدة بالقرب من منزلها للقاء به على أمل
الخلاص من زوجها الطماع في أقرب فرصة، وبينما
هي تنتظر حتى ظهر أمامها شاب أشقر، شاحب
طويل ونحيلٌ تبدو عليه علامات النضج وطابعُ السموّ
والعظْمه، يحمل حقيبةً من الجلد البني الثمين، عرفت
سمراء أنه المحامي من هندامه الرسمي فلوّحت له

مسرورة.

-مرحبا سيدتي .

-مرحبا بك سيد...!

-لوسيان جي المحامي وأضاف يكفي أن تتاديني لوسيان
دون رسميات، لأنني لا أحبها.
-تشرفت بك لوسيان.

تحدثت سمراء مع لوسيان مُطَوِّلاً وشرحت له
الوضع جيدا والكيفية التي زوّرها زوجها الأوراق
للحصول على نصف الثروة، وأخبرته أيضا عن رغبتها
الشديدة في الطلاق منه، وهو بدوره طمأنها بأن كل
الأمور ستكون جيدة وطلب منها تأجيل أمر الطلاق
وابقاء هذا اللقاء سرا، ريثما يجمع ما يكفي من الأدلة
ضد جبريل لأن معرفة هذا الأخير بالأمر قد يقلب
الأوزان، خاصة أنّ كلاهما يعرف خبث جبريل
والمسار الذي قد يسير عليه إن أحس فقط أنّ فرنكا
واحدا قد ينقص من ثروته المرجوه فوافقت سمراء على
الأمر.

تشاء الصدف أن يكونِ للوسيان موكلةً أخرى
كانت تعمل في أحد الحانات التي يزورها جبريل،
وهي الآن تحاول رفع قضية على صاحب الملهى الليلي
رغبة منها في الهروب، ولكن لأنها وقعت على أوراق
معينة سيتطلب منها الأمر دفع مبالغ كبيرة للتعويض،
وهذه النقطة بالذات لفتت إنتباه سمراء في أحد
اللقاءات حينما جمعتهما الصدفة في مكتب
لوسيان. ولأنها تعرف أن زوجها ماجنٌ أكثر مما هو
ماكر لجأت سمراء إلى حيلة بارعة لتحطيم كل
السلاسل وفك كل القيود التي وضعها حولها
جبريل... نعم خطرت ببالها فكرة جميلة جداً تجعلها
تنفذ بجلدها وثروتها مثلما تنفذ الشعرة من العجين،
وبالإضافة إلى ذلك تساهم في إنقاذ روح تلك
المخلوقة.

إتصلت سمراء بالمحامي واتفقت معه وشرحت له خطتها، وهو الآخر أخبرها بكل الأمور والصعاب التي تواجهها الراقصة. وهذا بعد أن أعجبته الخطة وهضمها عقله هضمًا. بل حتى أن عيناه قد أشعتا نوراً عندما رأى القوة تتجسد أمامه في هذه الشخصية الجميلة.

في نفس اليوم قصدت سمراء الحانة من لهفتها وبقيت في أحد الزوايا تترصد الراقصة بعمق ورأت كيف تُعامل وكيف تُسحب وكيف تنظر وكيف يُنظر إليها، عرفت آلامها وعذاباتها من خلال عينها ويفضل أن نقول أنها قرأتها. وعندما خرجت الراقصة تبعها سمراء بخطى واثقة حتى وصلت هذه الأخيرة إلى الكوخ الذي تعيش فيه، لقد كانت ملاحقة كطريدة .

انتظرت سمراء لحظاتٍ ثم كتبت لها ورقة فيها
عنوانها ورقها وطلبت منها زيارتها صباح الغد ووضعتها
تحت الباب ورحلت مسرعةً.

في صباح اليوم التالي... إستيقضت سمراء
قبل أن تبرزُ خيوط الشمس الذهبية، ارتدت أجمل
ثوبٍ من الخمّل الأخضر يصل إلى ركبتيها وربطت
على عنقها وشاحاً من الساتان المزركش بالأحمر
والأصفر الذهبي... ثم تمكّجت وتعطرت. كانت تريدُ
الظهور في أبهى حلةٍ وفعلت...، وبينما هي كذلك
حتى دخلت مليسا جافة ونحيفة، صفراء كسفرجلة
عظامها خشنة وعروقها بارزة، أنفها كبير ضخّم
ومفطّحٌ جبته عريضة وعيناها كبيرتان تظهر عليهما
علامات العجرفة لكن رغم ذلك تبدو هشة...هشةً

جداً وكأنها ستتكسر وتشتت إن قمت بلبسها، تعلن
وصول ضيفه.

- صباح الخير سيدتي.

- صباحك أجمل.

- هناك سيدة ما تنتظر في الأسفل تقول أنك أعطيتها
موعداً.

- هم...م

- لكن يا سيدتي دعيني أخبرك أنه لم يسبق لي
رؤيتها من قبل هنا. كما أنها تبدو غريبة جداً لتأخذ
منك موعداً.

لقد فعلت... لكن اعتبرني هذا سراً، يجب أن
لا يعرف أحد بزيارتها لنا وإلا...وإلا فإنك تعرفين
العواقب جيداً.

-أجل، أجل سيدتي. إعتدي علي
في ذلك.

- إذن إذهبي واستقبليها وضيّفيها كما يضيّف الملوك،
أريدها أن تنبهر. خرجت ميليسا مُسرّعة لتقوم
بالواجب، وبقيت سمراء تُرتب أفكارها وتسنّ قوانين
لعبتها الجديدة لِبرهةٍ ثم لحقت بها هي الأخرى.

'طِينُ أَنَا كَلِمًا صَافِحَتِكَ. نَبَتَ
فَوْقَ كَفِي الْيَاسْمِينِ'.

إِليِنَا فَوَاتِيْسِكَا

على أريكة من المرمر الأحمر والأخضر
 المذهب جلست عذراء شابة سمراء شفيفة البشرة،
 جميلة ذات عيين مرحتين وابتسامة ساحرة، فمها مثير
 وملاحظها رقيقة تجعل الناظر إليها يُصاب برغبة محمومة
 في جوف بطنه. جلست ترقب طاولة وكراسي من
 خشب الجوز وستائر من الكاليكوت الأحمر المؤطر
 بعصائب صفراء ذهبية، ثم وقفت ولمست يديها
 الرخوتين الحيطان المزركشة هي الأخرى بورق أحمر
 مذهب يلمع ممررة إياها على مدفأة القيشاني الأبيض،
 التي تبدو تحفة نادرة من طراز لويس الخامس عشر
 غير مخفية إعجابها الشديد بساعة جدارية نواسة، ومرآيا

فاطمة بومدين

سمراء

مُصَدِّفَةٌ الحواشي والكثير من الأثاث المنجَد . وفي
هذه الأثناء كان أنفها يتحَسَّسُ رائحة السوسن التي
تغطي الأجواء وصوتها الداخلي يقول: ياله من صالونٍ
تقليدي نخم وجميل! إنّه حقا نُحْفَة نادرَة.

-سمراء: مرحبا بضيفتنا العزيزة.

-الراقصة: مُرْحَباً بِكَ سيدتي. وبقيتُ تفكرُ قليلا أينَ

رَأَتُ هذا الوجه الملائكي ثم قالت: ألم نلتقي من قُبْلُ.

-بلا فعلنا...وإبتسمت إبتسامة جميلة ثم واصلت قائلةً.

حتى أننا تحدثنا مطولا في مكتب لوسيان جي.

-آ آ آ...أجل أجل تذكرت ذلك الآن...يالها من

صدفة.

-في الواقع ليس الأمر بصدفة ياسيدة...!

-إيلينا...إيلينا فواتيسكا، نعم إيلينا فواتيسكا هذا هو

إسمي .

- اسم جميل وصاحبته أجمل .
- هذا من لطفك ، لكنني لستُ بجمالك طبعاً . ثم ضحكت الإثنتان معاً في صخب .
- سمراء : حسنا الآن وقد إنتهيت من ضيافتك ، أريد أن أعرض عليك عرضاً مغربياً... مغربياً جداً وإن قمتِ برفضه ستندمين كثيراً .
- تفضلي ، لعلّي لا أرفض .
- أترين هذا البيت ؟
- نعم ! - مارأيك به ؟
- جميل جداً، إنه قصرٌ... أظنّ أنك تظلمينه عندما تقولين عنه بيتاً .
- هي : نصفه لك . ومنذ الآن إنّ نفذتي لي رغبتني .
- إيلينا فأغرة الفم محمّلة العينين حمراء الحدودِ
مرتبكةً. نصفه كله لي؟ لي أنا...!... لي وحدي !

- نعم نصفه كله لك بالإضافة إلى هدايا أخرى
ستُبهرِك.

- حسنا هذه صفقة لا أحصل عليها كل يوم، حتى في
أحلامي لم أتخيلها، لكن أليس حَرِيًّا بي أن أعرف
ما هو المقابل.

-المقابل هو لعبة بسيطة نسترجع فيها كرامتنا .

- آه! هذه لعبة إذن.

- نعم لعبة مربحة. وغمزتها بلطف .

- إشرح لي الوضع أكثر يا سمراء. لا أريد أن أخاطر.

- حسنا. إفتحي أذنيك الآن... ثم بدأت في شرح

الخطّة من الألف إلى الياء واضِعَةً النقاط على

الحروف حتى أنها توقعت ما يمكن أن يحدث من خلل

أو خطأً وجهزت الخطط البديلة في حالة حدوث

ذلك أيضًا. ولأن كلام سمراء كان يَصْطَبِغُ ببساطةٍ

فاطمة بومدين

سمراء

مُطلقة تجعلُ حديثها يبلغُ من اللّطفِ والكيّاسةِ والرّقّةِ
والذوقِ مبلّغهُ الكامل نفذت لها إيلينا رغبتها في إذعان
تام.

في تلك الليلة بالذات بأشرت إيلينا فونتيسكا
مهمتها في الملهى الليلي وكلها لهفة وأمل وطمع أيضا:
- هل يمكن لسيدةٍ مثلي أن تجلس بِقربِ حضرتك
للراحة قليلا.

- جبريل : وهل يرفضُ المرءُ صحبةَ سيدة جميلة إنَّ
كان له عقل.

- شكرا... هذا من لطفك.

- جبريل مُتحدثا وهو يحمل كأسا من النبيذ الأحمر :
هل تشاركينني هذا.

- ليتني أستطيع!

- ما الذي يمنعك؟ أم...

- قاطعته قائلة: في الواقع ليس جلوسي هنا مُحضُ
صدفةٍ أو غير ذلك بل هو لقاءٌ مُخطَّطٌ له وبإتقان.

- أم...! كيف ذلك؟ اشرح لي.

- إيلينا: في الواقع سمعت من كلام الناس هنا وهناك
أنك رجل ثري وأنك ورثت حَمَاكَ منذ فترة قليلة ممَّا
ضاعف ثروتك أكثر.

- قال: هذا صحيح... أكلي.

- كما سمعت أيضا أنك رجلٌ سَخِيٌّ شَهْمٌ وَكُفْكُ
مدودة تعطي بسخاء.

- جبريل: آها آها آها ضاحكا. هل هذا ما يقال
فعلا؟!!

- هزت رأسها بسرعة... نعم.

- هذا جميل أعجبنى... أكلي.

- إِنَّ الطَّلَبَ مُدْلٌ لِكُنِي أَحْتَاكُ ... كُن طَيِّبَا مَعِي
أَرْجُوكُ فَأَنَا فِي غَايَةِ التَّعَاسَةِ.

- جبريل: هَاتِي مَا عِنْدَكَ.

- عمري 28 سنة وقد جئت إلى فرنسا منذ حوالي ثماني
سنوات كنت فتاة حاملة، غرني جمالي، قَدِّي وَقَوَامِي
بمحت هنا عن الرزق عن الأمان عن زوج يحقق
أحلامي ولم أعرف كيف انتهى بي الأمر هنا
كراقصة والآن أحاول الخروج من هذا الوحل ولا
أستطيع... لا أستطيع وبدأت تبكي بحرقّة في شَهَقَات
متواصلة. حتى أَبْرَقَتْ عَيْنَاهَا وَظَهَرَتْ عَلَيَّ وَجْهَهَا ثَمْرَةَ
الْحَرَمَانِ.

- لا تفعلي ذلك... ألم تسمعي عني كلاما جميلا... إذا
لا شيء يدعو إلى الخوف.... أكلي كلامك فقط.

- هي: حررني أرجوك! يُقال أنّ الخيط الرقيق من النار هو أملُ الجمرَة وأنتَ أَمَلِي.
- ماذا عساي أصنع الآن؟
- إِدفع عني.
- ماهو المبلغ المترتبُ عنك؟
- لا أعرف كل ما أعرفه أنه مبلغ كبير. يرد. حسنا
- إعتبري الأمر قد تم.
- هل تتحدثُ صدقاً...؟ ها... هل أحلم...! أقسم
- أنك ملاك وقفزت مُقبلةً خده الكثير من القُبل.
- حسنا توقفي....
- فنظرت إليه شَزراً! فقال كانت ردة فعلٍ جميلة، وراقتني أيضا لكننا في مكان عام أجابته قائلة: حسنا
- أسفة؛ أسفة جدا.
- وقبل أن تَهَمَّ إيلينا بالرحيل أخذت رقبه وعنوانه.

-زوريني قريبا يا سيدة. فأجابته من بعيد
-سأفعل بالتأكيد.

كانت الخطة تقول بأن على إيلينا التقرب من
جبريل وإيقاعه في حبها حتى العظم، وعندما يفعل
ذلك تكون سمراء قد رفعت عليه دعوة طلاق رسمية
ولوسيان سيكون في الخفاء محاميها لكن أمام الملاء
سيكون محامي جبريل، حيث أن إيلينا ستتدخل
وتنصح جبريل بمحامي جيد يجعله يربح القضية دون
مشاكل وتعقيدات وهذا المحامي هو لوسيان جي. بينما
يكون هذا الأخير قد أوكل المهمة لصديقة له اسمها
أورسولا مانكابرو، وكان الهدف من هذا كله أن يُجهز
لوسيان أوراق تنازل عن الملكية وإيلينا تخدره وتجعله
يوقعها هذا في حال لم يجد أي دليل عن التزوير الذي
قام به جبريل للحصول على نصف ثروة حماه وبالتالي

تعود الثروة لسمراء ونصف القصر لإيلينا، وجبريل يدخل السجن أو ينفذ بريشه إن استطاع، وفعلا سارت الأمور كما تم التخطيط لها تماما في بادئ الأمر لكن شيئا عظيما قد حدث في المنتصف كاد أن ينهي اللعبة، وهو حب إيلينا الحقيقي لجبريل والجميل في الأمر أن هذا الأخير كان يبادلها نفس الشعور. إيلينا فتاة مثقفة بعض الشيء تحب القراءة والمطالعة، تعشق الكتابة والرسم والموسيقى والفنون الجميلة بكل أنواعها، وفوق هذا ذكية ذكاءً وقادراً، امرأة حنون شرسة ووفية في الآن ذاته. لم تحظى بالاهتمام، الأمان أو الحب في هذا العالم والآن حصلت عليه، فهل ستفعل المستحيل من أجله وتخلف الوعد الذي قطعتهُ على تلك المظلومة سمراء؟ هكذا سألت نفسها إيلينا لعلّ الجواب يحظرها لكنه لم يفعل ثم خاطبت

نفسها بصوتٍ عالٍ فقالت: هذا وحقُّ الله أخطُ وأسفلُ وأندَلُ وأخذَلُ... فِعِلِّ أفعله. ثُمَّ أيُّ شيطانٍ هو ذَا... الذي جعلني أقعُ وقعةً كهذه. وبدت في تلك اللحظاتِ شديدة التأثير وتعلمون أن الواحد منا لا يكون شديد التأثير إلا إذا كان بداخله ألم.

في الجانب الآخر كان لوسيان يفعل المستحيل لتصبح سمراء حرة من هذا الزواج العفِن، ليس حبا للمهنة بل لأنه كان يذوب عشقا فيها هي بالذات، تلك اللقاءات القليلة وتلك الكلمات والضحكات العابرة استطاعت أن تُعشش في قلبه، وتولد ذلك الإحساس الغريب الذي يُسمى عشقاً بل وهوساً حتى وكم استعمل أنفه الأسباب لزيارتها وكم استغل الفرص لمكالمتها وسماع صوتها، وكم ضحَى في الخفاء والعَلنِ

لأجلها. لكنها لا تعلم ذلك حتى ولربما تعلم ولا تُقدِر
هذا.

خلتِ الساحة الآن للوسيان جي وإيلينا
فواتيسكا وكلاهما يريد أن يحمي من يجب حتى لو على
حساب الآخرين. كلاهما يعرف نظرة الحب هذه
وكلاهما فهم مقصد الآخر، لكن ولا واحداً منهما
كان يستطيع التراجع الآن. ولأن لوسيان يعرف كمية
الغباء التي قد ينتجها الحب، ولأنه يفهم نار ولهب
الحب أيضا أراد أن يُقدم مساعدة بسيطة لإيلينا هذه،
ونخرج نحو بيت معبودته يُخبرها بكل شيء... وبرصانةٍ
في صوته وبدقته التي لا حد لها اقترح عليها أن تزور
بيت جبريل وتتحدث معه لآخر مرة ليس من أجل
نفسها ولا من أجل ثروتها بل من أجل تلك الإنسانية
التي قدمت لها يدّ العون حينما إختفت كل الأيدي

عنها. وما إن سمعت سمراء هذه الكلمات حتى تغير
لونها وارتبد وجهها وصار حنطياً قاحلاً ثم شُجبت وفي
كثير من الأحيان كانت تَشْحُبُ شحوباً غريباً كهذا.
يبد أنها لم تنطق ببنتِ شفةٍ وابتلى وجهها دموعاً
جارحةً، ولم تُظهِر له شيئاً غير الاحترام رغم أنها
كانت في داخلها تحترق بل وكانت تفضل الموت على
هذه الإهانة.

في المساء جلست إيلينا في صالون بيت جبريل
وبقيت تتحاور وتتجادل مع نفسها حتى دخلت عليها
سمراء بغضب

- أيتها الماكرة أنتِ هنا... آه !

نظرت إليها إيلينا محلقة العينين مدمرة النفس نجلاً
وقالت : آسفة ياسمراء، آسفة جداً. لكني لن أخلف
بوعدي أعدك...

-أين ذلك الماكر أريد الحديث معه، ولم تُتمّ كلماتها بعد حتى دخل جبريل من الباب العريض يتبخترُ وكأنّه ملكُ الغابة. ما الذي تفعلينه هنا يا هذه؟

-أريد أن نتحدث لآخر مرّة.

-هل تعلم يا جبريل أنني لم أرغب بك كزوج لي ولو لمرة واحدة، لكن أبي...نعم أبي ذلك الرجل الذي خنته وتعيش الآن في خيراته كان يفعل المستحيل ليقنعني بك.... كم كان يصف روحك...و كم كان معجبا بصدقك وجهدك في العمل...انح لكن ماذا فعلت أنت؟ آه ماذا فعلت؟ دعني أخبرك لقد جعلته يرى وجهك الحقيقي قبل أن يرى ملك الموت...

-ايلينا: أنني هذا الأمر يا عزيزي أرجوك. انفتحت لها قائلاً أصمتي أنت لا تدخل في أمور أكبر منك...أمّا أنت يا فاجرة أخرجي من بيتي حالاً...عرفت حقيقتي

ها ها ها لو أنه تعرف على حقيقته هو لكان
أفضل... هيّا أخرجي، هيّا عودي إلى بيت أبيك يا
سمراء ولا تأثمي بعد الآن. وأمسكها من معصمها
وبدأ يجرها نحو الباب فحركت يدها بقوة جعلتها تفلت
منه

-إذن هل تظن أني سأعود إلى بيت أبي كمن خرجت
تطلب قرنين فعادت بلا أذنين. وتجهم وجهها وبدأت
دموعها تنبجس وتخرج من طوع نفسها لكنها
تشجعت وقالت: على كل حال كانت هذه فرصتك
الأخيرة قبل أن تخسر كل شيء حتى هذا الحب
وأشارت بطرف إصبعها إلى أيلينا وخرجت بعد ذلك
مسرعة. بينما وقفت هذه الأخيرة وقفة صارمة وكأنها
ستنهي كل شيء الآن وقالت: أولم يكن أشرف إليك
أن تعيد الثروة إليها؟

-لا لم يكن ليكوّن كذلك.

-اذنّ دعنيّ أخبرك ليلة أمس جعلتك توقع وثائق
أتذكر؟

-نعم وما دخل ذلك الآن؟

-بالمختصر لقد عادت الثروة إلى صاحبها الآن، واليوم
سلمت الملف للحامي.

- كيف تفعلين ذلك وصفعها صفةً أسقطتها
أرضاً، كيف تتجريين؟

-لأنّي أحببتك لأريد أن تكون بدايتنا هكذا. ثم
استجمعت نفسها وأخبرته كل شيء، الخطة، اللقاء...
كل شيء كان كل شيء لعبة إلا حيي لك كان
حقيقياً، وإذا كنت تبادلني نفس الشعور سوف
توقف هذا الأمر هنا وإلا وداعاً وإلى الأبد.

- أنت تمزحين يا هذه... اسمعي أعيدي الملفات... سنأخذ الثروة ونعيش معا بسعادة ألم يكن هذا حلوك.

- لا... لآلم يكن هذا حلبي أبدأ، كان حلبي أن أعيش بسعادة وأمان فقط، لكن ليس على حساب تعاسة الآخرين.

- لا تفعلي ذلك... من أين جاءك هذا الغباء الآن.

- استأنفتُ القول : ماذا ستقرر أنا أضعك أمام الأمر

الواقع الآن... ستختار الثروة أم تختارني أنا؟

ولأنه تأخر في الرد فهمتُ نفسي.

- أرى أنك بقيت مُحْتَارًا.

- أجبني : نعم.

- لم أتخيل يوماً أنك ستتأخر في الرد عندما يتعلق

الأمر بي... هل تعرف كنت أريدُ حباً... حباً فقط

ولأنتي أيقنت أنك لن تعطيني إياه سأقول لك الآن
 آخر كلمات الحياة والموت لدي <<الوداع>> ثم أصمت
 وأرمي الأوراق في وجهه وأدير ظهري ، وأمشي في
 طريقي ببطء....

بات جبريل ليلته مُسَهَّداً لا يعرف النوم إلى
 جفنه سيلاً. شعر بنارٍ تشبُّ في جسمه وتحرقُ
 أحشائه حرقاً مال قلبه في نهاية المطاف، وفي الكثير
 من الأحيان نحن نَمِيلُ. بينما قصدت إيلينا باب
 القصر لتطلبُ الصّفح من سمراء، وما إنّ فتحت
 ميليسا الباب ورأت حالتها المزرية حتى صعدت
 مباشرة لتُخبر سيدتها.
 دق...دق...دق.

-تفضل بالدخول.

- آنستي الصغيرة جاءت السيدة فوانتيسكا.

- اللعنة.

- هذه كلمة سيئة ياسيديتي.

- لا تتدخل ياميليسا فأنا أتحدث كما أريد.

-أوووه .

- أجل...أجل سيدتي.

-دعها تنام هذه الليلة في غرفة الضيوف سنتحدث

غداً قبل الذهاب للمحكمة.

-حسناً...ثم خرجت صافقة الباب وراءها.

في صباح اليوم التالي عندما نزلت سمراء إلى

الصالون للقاء مع إيلينا وجدت أن هذه الأخيرة غير

موجودة، ولكنها تركت وراءها رسالة وأوراقا موقعة

تنص على أن القصر قد أصبح الآن ملكا لسمراء.

أما ماجاء في الرسالة فهو كالآتي :

إلى صاحبة اللطف الملائكي.

أتعلمين ياعزيزتي أنني فعلت المستحيل من أجلك
 لكن قلبي الضعيف كتب له أن يتدخل ويُفسد الأمر،
 ولو كنت أفسدته برغبة مني فهل كنت سأقبل عرضك
 في بادئ الأمر؟ قولي لي هل أنا مذنبه في نظرك؟ وهل
 لأحد أن يسلك مسلكي هذا إن كانت نفسه تسؤل له أن
 يفعل منكرًا؟

أنتِ أخرجتني من الوحل الذي كنت عالقة فيه
 وجبرّيل فعل أيضاً وبدل أن أسئ إليكما فضلت أن أعيد
 لك نصف هذا القصر كأعتذار، وفضلت أن أترك للآخر
 أمر الإختيار. أنا راحلة ياعزيزتي وأترك لك هذه التدوب
 والجراح لتعالجها بمفردك آسفة مرة أخرى.

المعدبة في الأرض إيلينا فواتيسكا.

أحست سمراء ألماً حارقاً يتخللها كلها وصارت
تحدث مع نفسها بصوتٍ عالٍ مُغْتَبِطَةً لهذا الخاطر
الطيب، ذلك الخاطر الذي كان يزرع الجميل هنا
وهناك ويؤلمها أنه يتعذب، ولايجني ثمار مازرعه إلى
الآن.

و بينما هي كذلك دقت الساعة العاشرة تعلنُ
موعد المحكمة التي ستخرج منها سمراء رابحة لقضيتها،
حيث أنّ لوسيان قصد منزل جبريل ليتحدث مع
إيلينا لآخر مرة فوجد البيت مقلوبا سافله على عاليه
والرجل في حالةٍ ثمالة يرثى لها وربما لايصحو إلا بعد
أيام فاستغل الفرصة وأخذ الأوراق الموقعة وخرج
باتجاه المحكمة. وهكذا تخلصت سمراء من ذلك الزوج
بل وجعلت منه مهرجاً بكل سهولة، بينما في حقيقة
الأمر استفاق جبريل وعرف أنّ الأوراق قد سُرقت

لكنّه فضل اللّحاق بقطار الحب بدّل قطار الثروة
وتأخّره في الرّدّ ليس لأنّه كان فاقداً لكل فطنةٍ إنّما
بهرت الغبطة عينيه فغَشِيَتَا عن الحكم هذا كل ما في
الأمر...!

تنفست سمراء الصعداء وأخذت تمشي وقد
سرت الحياة في أطرافها من جديد، مرة تراها تصعد
السلم ومرة تراها تنزل منه ثم تعود فتتجول بين الغرف
والأروقة مرّة أخرى كأنّها فقدت شيئاً ... حتى تعبّت
وأمت لا تشعر بالأرض تحت قدميها ولا ترى شيئاً
مما يجري حولها، ثم إرتمت أخيراً على أريكتها كما
جرت العادة بعدما شغلت موسيقى دافئة جدا
وبصوتٍ خافت بحيث جعلتها تلك النغمات البعيدة
تحس أنها تتشرّبها، فتحلّت فيها بعمق ورأت نفسها
تندفق ببطء، وانسكبت الذكريات والآلام أمامها وما

إنّ فعلت حتى دخلّ لوسيان عليها لكنّها لم تنتبه لذلك
لقد كانت شارِدةً، سُروداً مُرّاً صَفَقَ هذا الأخير أمام
ناظرها بأطرافِ أصابعه وقال : أرى أنك تترجحين في
الأحلام!؟

- هَهُ... وهل تحلمُ بأسة مثلي أنا!

- لاتقولي ذلك....."أرجوك".

- إذنّ ما سبب زيارتك لنا في هذا الوقت؟

- حسناً...! ظننت أننا أصدقاء والصديق يزور
صديقه في أي وقت يرغبُ به.

- نعم... نعم... أنت محق، لاتأخذني على سؤالي هذا .

ثم عادت تترجّحُ في ذكرياتها مرة أخرى، وبقي
لوسيان يرقبها في صمت ويلحظُ خدودها الصغيرة
المحمرة وأهدابها وهي مستويةٌ وخصلةُ الشعر التي
كانت تُلغها حوّل سبابتها ببطيء، وغاب هو الآخر في

شفتأها المعبرتان، بل وكان يراها معبرتان للغاية، حتى أن كل شيء فيها كان معبراً بالنسبة له.

- قال: لا أعرف كيف يترك المرء شيئاً جميلاً كهذا مكسوراً مُحطماً في الطريق ثم يرحل. ويبدو أنه قال جملة هذه بصوت عالٍ.

-وما إن سمعته حتى قالت: لم يكسرنى أحد يوماً أنا فقط خُذلت... خُذلت هذا كل ما في الأمر.

- وجبريل؟!!

-ها ها ها ؛ وهل يمكن للخروف أن يؤذي اللبؤة؟! لا ... لا يمكن طبعاً. هكذا حدث، على كل حال أنا لم أهتم لأمره يوماً نفدت رغبة والدي فحسب لكن هذا لا يعني أبداً أنني لم أبذل جهداً لأكون زوجة جيدة. لم أنجح لكنني لم أُنكسر أيضاً.

- إذن بماذا كنت تفكرين !

- بأمي... نعم تذكرت أمي وتلك الذكريات الجميلة بقلبٍ
ملؤه الشكر لأول مرة منذ سنوات.

- هـ م .

- هل تعلم عرفت مؤخراً أنّ لي أختاً...! ها ها
ها لا أعرف إن كان يتوجب علي البكاء أم
الضحك، أخبرني فقط ماذا يمكن لشخصٍ مثلي أن
يفعل؟ أنا فعلاً متحمسة، مندفعة ومترددة. خائفةً،
حزينةً وفرحةً في الآن ذاته.

أريد أن أتعرف عليها أريد أن أبدأ معها صفحة
جديدة أن أمنحها الحب بعدما لم أجد حباً من أحد.
لقد تيتمننا منذ طفولتنا الغضة. جدّها أرجوك أرغب
في أن أطيّر، أتتنفس، أعيش معها.

سأفعل... لكن بمناسبة هذا الكلام ربما يوجد شخص ما هنا وهناك يجبك لكنك لا تسمحين.

- أنا لا أتحدث عن ذلك النوع من الحب... أتفهمهم.
- لا أفهمهم... كل ما أفهمه أنك تحررت، ولا شيء
سيقف أمامك الآن. لَمَّا لا تبدئين حياةً جديدةً مع
شخصٍ يُحبك... يجبك هكذا بعمق وشدَّة
قبضته بقوة أثناء قوله لذلك .

- لا أرغب في ذلك... لا أحد يستحق.

- حتى لو كان هذا الشخص أنا؟

عندما قال لوسيان ذلك إجمرت سمراء
، ارتعشت فرأسها وتولدت لديها رغبة شديدة بإلقاء
نفسها في نافورة الماء البارد لعلها تستفيق. إستأنف
قائلاً مرة أخرى : ألا تقبلين بي؟

- لا .

- لماذا لا تقبلين؟!

- لا أريد .

- ألا تستطيعين !

- لا

- هل أقول لك شيئاً؟

- كلاً. وأضافت دعني وشأني أرجوك.

رَأَن صَمْتُ طَوِيلٌ، تَسْأَلُ فِيهِ لَوْ سِيَانَ عَن

سَبَبِ رَفْضِهَا هَذَا فِي نَفْسِهِ وَخَتَمَ كَلَامَهُ بِجُمْلَةٍ جَمِيلَةٍ
جَدَا وَمَعْبَرَةٍ هَزَّتْ بِكَانِهَا.

"أنا أحبك جداً وأعرف أنك أحسستِ بذلك

و لأصدقك القول يكفي أن يُحِبِّي قلبكِ هذا - وأشار

بإصبعه إلى موضع القلب في صدرها - لأعيش . تبادلًا

إثر هذا الاعتراف نظرة صامته ثم خرج .

'... لا أراكُ ولكني ألكُ، فرؤية العين رؤيةُ القلبِ

لقاء...'

اللقاء

بينما كانت سمراء تعيش كل هذه الأمور
وتواجهها بقوة وذكاء، كانت أختها الصغرى التي لم
تكن تعرفها من قبل حتى في الجانب الآخر من العالم
تحاول جاهدة الوقوف على ساقها المشلولتين 'تونس
،المغرب، تركيا، فرنسا... والقائمة طويلة جدا.

هذه هي الدول التي زارتها إيلياء
من أجل العودة إلى طبيعتها الأولى ولكنها لم تنجح
وهاهي الآن بعد مرور ثلاث سنوات تستطيع التحرك
قليلا بفضل مراكز العلاج بالأعشاب والإبر في
الصين. مرّت سنة كاملة على وفاة والدها فريد. بل
وسنة كاملة على معرفتها بكل شيء ،والدها الحقيقي،

أختها الكبرى، آلام أمها وعذاباتهما... والكثير من الأمور التي كان من الممكن أن تؤثر على علاجها. لكن ذلك لم يحدث، ولربما السبب يعود لوجود شخصٍ رائعٍ جدا بجانبها لمساندتها ودعمها.

وهذا الشخص هو زوجها الطبيب علي، كان علي هذا شخصاً رائعاً بالفعل مثقفاً جدا حتى خارج تخصصه ولا بد أنه متفتح أيضاً. بحيث أننا لا نرى كل يوم شبابا من شباب الجزائر يتزوجون فتيات مشلولات أو بهنَّ عيوباً أخرى حتى وإن كانت طفيفة. إنهم دائماً ما يبحثون عن امرأةٍ كاملة المواصفات رغم النقص المتواجد فيهم. كأنهم بإيجاد هذه المرأة الكاملة. سيكتملون أيضاً.

وبالإضافة إلى الصفات التي تم ذكرها سابقا، يتميز علي أيضاً بوجهٍ مستديرٍ ورأسه مستديرٌ وأملس،

شعره دائماً مصنف على جبينه كأنه إمبراطور عثماني عظيم، نظرته مُنقبة معزولة ومُتبصرة، رؤيته راقية أيضاً ويتحدث بنبرة رتيبة جداً لا تتسارع ولا تتباطأ. كَيْسٌ كَيْاسَةٌ لا يَشوبُها مَلَلٌ أو ضَجْرٌ.

- علي: صباح الخير أميرتي. كيف حالك اليوم؟
- أنا بخير أفضل من قبل بكثير والفضل يعود لك.
- إذن كافحي أكثر، أسبوعان فقط وينتهي العلاج ويصبح بإمكانك التسابق مع الخيول.... ثم

- ثم ماذا؟

- ثم يحدث اللقاء المنتظر.
- هل تقصد أبي وأختي!
- نعم...عرفت أنهم يبحثون عنك أيضاً.
- لقد وصلتني برقية منذ أيام فيها أسماء أشخاص من عين المكان يبحثون عن عائلاتهم، ولفت إنتباهي اسم

مشابه لإسم أختك، أخذت العنوان وبعثت رسالة
للتأكد، ثم وصلني الرد ليلة البارحة.

- إذن...؟

إنها هي...، وهي تعرف كل شيء بشأنك وتبحث عنك
أيضاً.

- هل قالت ذلك حقاً؟

- لا لم تقل.... كان ذلك محامياً الخاص.

- لا بد أنها هي من طلبت منه البحث عني....

آه يارب أشكرك. لم يذهب دعائي هباء يا علي... لم

يذهب. وتحجرت الدموع في زوايا عينيها المحدثان.

بعد مرور الأسبوعين كانت إيلياء قد

استعادت عافيتها بحيث أصبح بإمكانها الوثوق بقدميها

أكثر من قبل وهاهي الآن تستعد لخوض معركة

أخرى من معارك الحياة وهي
'المواجهة'.

جمعت الحقائب وجهزت كل شيء للسفر ثم
خرجت مع زوجها لتناول وجبة الغذاء في مطعم
صيني مشهور يُقدم فيه الطعام فاخراً وزائراً ومكلفاً
.ورغم أنّ الجو كان بارداً والسماء تتماوج كالبحر
الهائج، إلا أنّهما اغتتما الفرصة للاحتفال بشفاءها
وكمّعة آخر يوم لهما في الصين.

بعد الانتهاء من الطعام عادت هي إلى البيت
بينما ذهب هو لإنهاء كل الأمور العالقة، وتأكّد في
طريق العودة من سلامة حجز التذاكر بعد الظهر،
بدى طويلاً جداً خاصة أنّ كلاً منهما كان يجلس
متبساً في مكانه دون حراك أو كلمات.

خرج الزوجان الحبيبان من المطار يمسك كل منهما يد الآخر بشدة وكأنهما يخافان الإقتراق. كان الجو جميلاً رغم برودته فأشعل ذلك داخل رُوحِهِمَا نار الحماس. بقيا لبرهةٍ ينتظران وصول لوسيان جي والذي كان بدوره يجهز لحضورهما منذ مدة في الخفاء. لقد كان يريد إسعاد سمراء ورأى أنّ موضوع أختها فرصة جيدة ليتقرب منها أكثر.

قضت إيلياء ليلتها الأولى في بيت والدتها تلمس الأثاث وتقبل الأفرشة والملابس وتتمرر يديها الناعمتين على الأسرة والطاولة منبهة بذوق أمها الجميل ومعجبة إعجاباً كلياً بواجهة البيت، ثم جلست بعد ذلك على كرسي من خشب السنديان يخص والدتها. كان مقرباً جداً من النافذة ونحمت أن أمها كانت تجلس عليه طوال الوقت لتراقب سمراء. فاضت عيونها بدموع الألم

والشوق وقررت أنّ تفعل نفس الشيء بيدّ أنها لم
تستطع رؤية أي شيء سوى الضوء المنبثق من إحدى
الغرف.

فجأة ظهر أمامها علي يحمل صندوقا من الخشب
يبدو موداله قديما جدا متعمدا أنّ يكسر حزنها: أنظري
يا سمراء كأنه قطعة نفيسة.

- نعم يبدو كذلك.

- أحضر لوسيان بعد الخضر المطبوخة.

- أنا جائع هل نأكل سوياً؟

- نعم فلنعمل أنا جائعة أيضاً.

تناولت ملعقتين أو ثلاث وتوقفت. ألم يعجبك! هل
أحضر لك شيئاً آخر.

- لا شبع.

- شبعتي بلقمتين... بطنك صغير وضحك.

- نعم شبعت...حمدَّ الجوع وأحسستُ مكانه راحة الخلو.

- حسناً إذا يتوجب علينا النوم حالاً غداً سيكون يوماً حافلاً بالنسبة لك.

خرج لوسيان من بيته في عجلةً من أمره متجهاً نحو بيت سمراء لكنه لم يجدها هناك. جلس ينتظرها لساعات وساعات دون أن تأتي ثم سأل ميليسا فأخبرته أنها ستقضي اليوم بطوله في المدرسة بسبب مسابقة البالي لهذه السنة، حيث أنها كانت قد افتتحت مدرسة خاصة لتعليم رقصات البالي فاستغل الفرصة ليزين باحة المنزل على أكل وجهه، ثم اتصل بالزوجين وطلب منهما الحضور في الحال واستجابا لرغبته طبعاً.

فاطمة بومدين

سمراء

- إيلياء : إبتدأت الشمس تنحدر ولم تظهر شقيقتي
بعد.

- لا تخافي ستظهر قريبا.

- هل حقا أنت ابنة السيدة... لا أكاد أصدق. أجبها
لوسيان قائلاً : صدقي... صدقي ياميليسا.

صمت

حسناً أعتقد أنه يتوجب عليكما أن تجلسا هنا
بينما سأدخل أنا وميليسا إلى الداخل، وما إن تأتي
سمراء حتى ننهي هذه المسألة.

بقي الثنائي هناك يرتعش ويرتقبُ هذا اللقاء.
دخلت سمراء فجأة فسألها لوسيان مندهشاً : هل
عدتي؟

أجابته بأريحية :

_ لا شأن لك .

_ حسناً لا بأس، لا شأن لي.

ثم تبادل الطرفان نظرة ذكية سألته على إثرها

- مالذي تفعله هنا الآن؟

_ ألم تكلفيني بمهمة البحث عن أختك.

_تمحست. أجل.. أجل مبتسمة واغتصب

لوسيان إبتسامتها تلك فهو لم يراها تبسم من قبل، ثم

قال :

إنها تبحث عنك أيضا منذ سنتين لكنها لم تجد

شيئا.

- أريد أن أصل إليها.

- كانت في الصين منذ سنة لقد توفي والدها... أقصد

السيد فريد وذهبت لتعالج هناك علاج الإبر... لأنها،

- لأنها ماذا قل؟

- لأنها مشلولة ياسمراء .

- لا تنقل ذلك أرجوك. هل تمازحني؟

لا أفعل. لكن... لم ينهي كلامه بعد وركعت

على الأرض ركعة رجاء وبدأت في البكاء بحرقة حتى

وصل صوتها للباحة فتشجج وجه إيلياء واكتسب سخنةً
مهددةً. وغمغمت...

- تَبَّأ... ماذا يحدث هناك! هل ترفضني؟

- لن تفعل... ليس لديها الحق فأنتِ الابنة الشرعية
لذلك الرجل.

- هَسَسَس... إنها لا تعلم بذلك بعد.

- حسناً لن أخبر أحداً...!

تعالت الأصوات في الداخل مما جعل الزوجان
يتدخلان ليجدا سمراء مغشياً عليها.
ماذا يحدث لها... ماذا يحدث؟

أخبرتها أنك مشلولة ولم أكل كلامي حتى
سقطت أرضاً.

تُحَضِّرُ ميليسا الماء... يرشون وجهها ورقبتها ، تنتعش
 قليلاً لتجد نفسها تضع رأسها الصغير على ركبتى
 عزيزتها الغالية.

هَرِعَتْ وفتحت عينيها أكثر باحثة عن أجوبة
 لكن إيلياء إستأنفت القول نجلةً متحمسةً :

– أنظري يا سمراء لقد قضي الأمر، فتملكها
 السرور.

ثم تجمع كل من بالبيت حولهما وأخذوا
 يضحكون مقهقهين تملؤهم السعادة. تعانقوا فزال
 البأس والألم والتأمت الندوب وكأنها جروح سطحية.
 باتت الأختان تتحاوران وتفكان الأسرار
 المخفية... جمعن الرسائل والمذكرات وكل شيء حصلن
 عليه من الممكن أن يكون له علاقة بالماضي . وانتهى
 الأمر بمعرفة كل منهن بحقيقة وجود الأخرى. تحدثنا

عن طفولتهما الغضة ونسبهما ،عن ألمهما وجروحهما ..
 وباتت قصة كل منهما واضحة لاريب ولا شك فيها.
 ورغم ذلك كانت إيلياء تقرأ عيون سمراء الفضولية
 وظنت أن السبب يعود لكونها هي الابنة الحقيقية
 لجاك. لكنها كانت مخطئة فذلك الفضول كان بسبب
 إعاقتها.

أحست سمراء هي الأخرى بتوتر أختها
 الصغرى وخافت أن تفهم فضولها خطأ فبادرت
 متسائلة

- ماذا حدث لك عزيزتي ؟ ما قصة الإعاقة

هذه أريد أن أعرف كل شيء؟

- حسنا حدث ذلك بسبب زوجي.

- كيف...!

- ألا يعاملك علي جيدا.

- كنت أظنّ أنه يجبك؟

- لا لا...إنّه مثاليّ جدا.

- كان سندي في أسوء لحظات حياتي ودعمني بعد وفاة والديّ.

- كيف تعرفتما؟

لقد كان هو الطبيب المسؤول عن حالتي وعندما كان والدي مريضا. كنت أحتاج إلى شخص ما أتكلّى عليه فوجدته هو بجاني، فعل الكثير لأجلي ثم تزوجنا هكذا...هكذا فقط دون أية مقدمات وأحبنا بعضنا أكثر بعد الزواج.

- إذن ما السبب؟

- السبب هو زوجي الأول.

- آه كنت متزوجة من قبل، آسفة لم أكن أعلم.

- لا بأس.

- إذن كيف إنتهى زواجكما؟ اذا كنت ترغيبين في الحديث طبعاً.

- لقد كان يخونني...

- آه، وكيف عرفتِ ذلك؟

- تبعته إلى الزريبة.

- ما الذي كان يحدث هناك.

- أمورٍ خلاعية يا سمراء

- آآ آه غالقةً فاها بكلتا يديها.

- واصلت إيلياء قائلةً :

كانت عيناه زائعتان بوحشيةٍ إتجاه سلفتي
ناجية... لكنني لم ألاحظ ذلك، إلا أن رأيتهُ وهو
يرتَمي في أحضانها بِطَيْشٍ داخل تلك الزريبة اللعينة،
ولا بد أنّهما كانا يفعلان ذلك بإستمرار.

- يا إلهي.

- ما أهانني يا أختي أنه كان ينام بجاني ويتظاهر بالهدوء أمامي، بينما يمارس خلال الليل إحدى ألاعيبه الخبيثة معها.

- كيف واجهتي هذا الأمر؟

- لم أفعل... لم أفعل... رأيت كل شيء فماتت أطرافي وعجزت لساني من الصدمة. لكنني تركت رسالة لمصطفى وهو سلفي .

- خيراً ما فعلت، على كل حال لو واجهته ما كان ليَعترف. . فإمن رجل لديه ذرة عقل يعترف بالخيانة حتى لو أمسكوا به بين الملاحف.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

عدت لبيت والدي وعشت هناك، وحاولت جاهدة مقاومة المرض وساعدني علي فتجاوزت الأمر كما ترين .

أما مصطفى فلم يلبث أن عرف كل شيءٍ طبعاً والفضل يعود لقلادة الجلد التي تجلبُ الحظ. فطلق ناجية وطردها بملابسها، وفي السنوات الأخيرة دارت الكثير من الشائعات حول اتحارها بينما هرب الخلواني منذ ذلك اليوم ولم يعد له ولا اسمه أي أثر.

- لا بأس حبيبتى، واضح جداً أنهم لا يحبون...إنهم فقط يضحكون علينا ليتروكونا في نهاية المطاف محطاتٍ على الرصيف.

استأنفت إيلياء القول: أعتقد أنّ هذا الرجل جيد

لك..

- من تقصدين!

- السيد جى.

- هل الأمر واضح لهذا الحد.

- نعم.. واضح جداً. ألا تشعرين بالوحدة!

- لا أبداً.. لا أشعر بها إطلاقاً.

- تمتت إيلياء : أمّ.....

- إنها الحقيقة يا أختي صدقيني.

- حسنا لن أجبرك على شيء، لكن دعيني أخبرك

أنّه تحدث معي بشأنك.

- متى؟

يوم وصولنا في البداية كنت أظنّ أنه يلعب لعبة

ما ضدي. لكنّ ما إنّ طَفِقْتُ أتحدّث إليه، وبعد أنّ

سِرْتُ معه بضعة خطواتٍ لكي أرى لأيّ مدى يريد

أنّ يصل في هذه اللعبة التي يلعبها. فهمت أنّي أسأت

الحكم عليه، وعرفت أيضاً أنه يُحبك وبشدة وربما

وجودي هنا الآن هو نتيجة هذا الحب.

ربّما هو مجرد إعجاب..و الإعجاب يُولد الرغبة في
الإمتلاك.

- أعتقد أنّه جوهرة نادرة فكري قبل أنّ ترفضني.

-أنا..أنا أخاف أنّ أحزنّ إذا دخلت في مغامرات
الحب.

-ربّما لن يحدث.

- ليتني أدري لماذا لم أتعرف عليه من قبل.

- أنتِ محتارة إذنّ.

- جدّاً.

- جربي...ربّما سيكون هذا الزواج مفيداً لك.

بعد مرور أشهر قامت الأختان بتقسيم الثروة
 بطريقة قانونية وصارت إيلياء تحمل كنية والدها
 الحقيقي.

وانتهت الرواية بزواج سمراء من لوسيان جي
 وذهابهما لزيارة البقاع المقدسة، بينما إيلياء كانت
 تنتظر مولودها الأول فظهرت بمظهر زهرة تفتحت
 الآن. وهكذا يمكننا أن نقول:

* عاش الزوجان سنين زواجهما في وفاق تام. *